

سيميائيات الدلالة الموسوعية لدى امبرتو ايكو

بن مسعود محمد العربي*

إذا كان كل من القاموس والموسوعة يحدد على أنه أنموذج مجرد يفترض وصف شكل وعينا السيميائي، فإنهما يختلفان اختلافا كبيرا، حسب ما ذهب إليه إيكو¹، ذلك أن المعجم يقوم بوصف هذه المعرفة بألفاظ لسانية خالصة، في حين تسعى الموسوعة إلى إعادة الاعتبار لمعرفتنا حول العالم، وعليه لا ينبغي الخلط بينهما، وعلى سبيل المثال، تعلمنا المعاجم الشائعة بأن كلمة /ثور/ تشير إلى "حيوان من صنف الأبقار ذكر وبالغ"، في حين /نمر/ هو "حيوان كبير من أكلات اللحوم ذو فرو أصفر ملون بالأسود"، وهو تعريف من نوع موسوعي، والمأزق الذي تظهره التحديدات المعجمية ليس سوى شهادة عن غموض وضعية المعجمية، وعليه لا يمكن أن نميز - على نحو واضح - ضمنا بين المعلومة اللسانية ومعرفتنا للعالم.

وفي هذا السياق لا يمكن أن نغفل البعد السيميائي الذي تتوافر عليه نماذج التحليل الدلالية اللسانية، وبخاصة ما يدعى بالتحليل المؤلفاتي الذي يستند في إجراءاته التحليلي إلى مصادرة سيميائية مفادها أنه: "ليس في اللسان سوى الاختلافات"، حيث إن العلامات تكون قابلة للتحليل انطلاقا من قيم خلافية ناتجة في جوهرها من علاقتها الداخلية وحسب، بصرف النظر عن ما هو خارج هذه التبادلية العلائقة القائمة على مبدأ التضايغ أو أبعاد العلاقة المتبادلة بين أجزاء النسق.

* باحث أكاديمي - جامعة الجلفة - الجزائر.

سيميائيات

تتبدى لنا - في هذا السياق- أهمية هذه المصادرة نسقيا على مستوي اللغة: التعبير والمحتوى، حيث إنه في مستوى التعبير لا يتم إدراك الفونيمات إلا بما يسمي بالسمات الملائمة، التي تمنحنا التميز ما بين الوحدات الصوتية التي يتألف منها النسق اللساني، ومن ثم سعت فونولوجيا تروبتزكوي² إلى إيجاد تنظيم وظيفي في إطار نسق معطى للسان يهدف إلى معرفة التقابلات الصوتية الفارقة بوصفها حاملة لدلالة ما ولوظيفة دقيقة، ومن هنا كان هدفها ينحصر في انتقاء ما يمكن أن يستعان به ويستخدم من بين حزمة العناصر الصوتية للتمييز بين دلالة الكلمات، ويتمثل ذلك العنصر في الوحدة الصغرى الدالة التي يدعوها فونولوجيو حلقة براغ بالفونيم³ ((الذي هو -قبل كل شيء- مفهوما وظيفيا يحدد من خلال علاقته مع نسق ذو طبيعة اجتماعية أي اللسان... ويقوم الفونيم نوعا من القيمة، بالطريقة نفسها، الموجودة في العلامة -كما عرفها دو سوسير- بوصفها وحدة تقابلية نسبية وسلبية وتوجد داخل النسق وحسب)). إن الأبحاث الفونولوجية أولت عنايتها إلى السمات التمييزية الذاتية بوصفها خصصية مُمثلة في شكل أصناف من التقابلات الفونولوجية من نوع ثنائي تفخيم، ترقيق... الخ .

وانطلاقا من هذا الإطار الإجرائي على مستوى التعبير، انبثقت محاولة يامسليف من إمكانية تجزئة الوحدات الدلالية الصغرى في مستوى المحتوى إلى وحدات أصغر منها التي يدعوها بـ "شكل المحتوى"، مادامت تتوافر على إمكانية تتيح تحليلها إلى فونيمات، أو "شكل التعبير"، وذلك من أجل أن يبرر نظرية ((تشاكل كافة البنى اللسانية))⁴، من خلال ((افتراض علاقة متبادلة أو تضامن))⁵ بين المستويين السابقين. وذلك ((لأن وجود التعبير يعد شرطا لوجود المعنى))⁶، وتتمظهر هذه العلاقة في إطار العلامات اللسانية بوصفها ناتجة عن تمفصل عدد مُحدد من الفونيمات، تلك التي تتيح إنتاج عدد غير منته من العلامات أو الكلمات، لأنه بالطريقة نفسها المتبعة في التحليل الوظيفي، يمكن لعدد مختزل من أشكال المحتوى بناء عدد هائل من وحدات المحتوى، بداية من اختزال هذه المكونات الدلالية إلى محتويات صغرى متلائمة.

سيميائيات

يتأسس تحليل المحتويات الدلالية إلى وحدات دلالية بسيطة على اعتبارات لسانية محددة يمكن تطبيقها في مجال المعنى عن طريق التبادل، على المنوال نفسه المُطبَّق في الفونولوجيا على الوحدات الصوتية الصغرى، ومن ثم إذا كانت الفونولوجيا ترى مثلا في وحدتين مثل (ز، س) في اللسان العربي أنهما مختلفتان، فإن ذلك يظهر عند استبدال كل وحدة منهما بوحدة أخرى، مما ينتج عنه اختلاف في المعنى في مثل (سال، زال).

إذا كان البعد الخلافي بين الوحدات لا مندوحة عنه في مثل هذا التحليل الذي يدعى بالتحليل السيمي أو المؤلفاتي، فإنه يوصف بكونه ((منهجاً يقوم بمقارنة الكلمات))⁷. لأنه يكتفي بإحداث أنواع من التقابلات يتم على أساسها تصنيف الوحدات الدلالية وتبسيطها. إن التحليل السيمي يتحدد من خلال مقارنة السيم فقط، ويفترض تحققه أن تكون الوحدات متقاربة المعاني أو تنتهي إلى دائرة واحدة، ومن ثم أمكننا بطريقة مهمة بيان السمة المشتركة الأكثر عمومية التي تجمع المدلولات في تصنيف واحد. لكن هل ينجح التحليل السيمي حال الخروج عن هذه الدوائر المتقاربة من المعنى إلى دوائر متباعدة المعنى ؟

يقدم يامسليف 8 قائمة من ألفاظ في ضوء جرد يتأسس على مرحلة معطاة من خلال إجراء يقود إلى تسجيل مجموعة من المحتويات: "ثور، بقرة، رجل، امرأة، ولد، بنت، حصان، فرس، عجل، إنسان، ولد، حصان، هو، هي"، إذ إن مجموعة "ثور، بقرة، رجل، امرأة، ولد، بنت، حصان" ينبغي حصرها في قائمة من العناصر، لأنه يمكن تأويلها تبادليا بوصفها وحدات ذات علاقة مدركة بواسطة "الضمير هو أو هي" أو عن طريق الذكورة والأنوثة. حيث إن مجموعة "ثور، رجل، ولد، حصان" ما يميزها أنها تنتهي إلى محور الذكورة على مستوى محور الجنس، وكما في مستوى التعبير أن معيار اختيار تبادل يتم ضمن ملاحظة علاقة بين تضايف مستوى ما، وتضايف مستوى آخر... فإن استبدال محتوى مجموعة "ثور، هو، بقري" يمكن أن تتضمن تبادل ثلاثة عبارات مختلفة، "ثور = هو بقري" مما يكون مختلف عن "بقرة التي = هي بقرية".

سيميائيات

ويمثل لهذا يامسليف بالجدول الآتي:

حصان	ولدي	إنساني	بقري	
حصان	ولد	رجل	ثور	هو
فرس	بنت	امرأة	بقرة	هي

وعلى هذا الأساس فإن ((الدلائيات اللسانية تتناسب مع الأنموذج القاموسي))⁹؛ لأنها تنكب على مساءلة المعنى وفق ما يمليه الأنموذج اللساني وحسب، دون مراعاة معرفتنا للعالم، لذلك نردها بقيت متمسكة بالمنطلقات اللسانية في بنائها للقاموس، إذ طرحت مجموعة من التساؤلات المتعلقة بجملة من الظواهر الدلالية اللسانية مثل الترادف والتضاد والغموض الدلالي.

إذا كانت الدلائيات عمدت إلى بنينة المعنى في إطار آليات تختص بالظواهر الدلالية في حدودها اللسانية، فإن أمبرتو إيكو، بدوره، قد وقف على الصفات الموسوعية المشككة للمعنى، لأنه في نظره، ينبغي على السيميائيات ((إتباع الطريقة التي تستعمل ضمنها العلامات بغية تعين الأشياء وحالات العالم))¹⁰. وينتج عن ذلك أن قدرتنا الدلالية تأخذ شكل الموسوعة، حيث يتم ضمنها الممازجة بين معرفة العالم والمعلومات اللسانية¹¹.

وعلى هذا الأساس، قد يقول قائل أن الأنموذج الموسوعي هو أنموذج غير منتهي، مما يتولد عنه سوء الفهم جراء انفتاحه على ما هو لساني وغير لساني (معرفة العالم)، وردا لهذا الادعاء الذي قدمه أصحاب الأنموذج القاموسي يجيب الموسوعيون¹² بأن:

سيميائيات

1- الموسوعة هي مسلمة سيميائية ونظرية ابستمولوجية، التي يجب أن تحث الاكتشافات والتمثيلات الجزئية والمحلية للكون الموسوعي.

2- لا يوجد اختلاف بين المعرفة اللسانية ومعرفة العالم، ومن ثم فكلاهما ينخرط ضمن المعرفة الثقافية التي في خضمها كل واقعة تكون مفسرة بوقائع موسوعية أخرى.

3- المعارف الموسوعية لا تتضمن كل المعارف المزاجية التي يمكن أن يتخيلها فرد بمفرده، بل تلك الثقافة المتداخلة في المورث المعرفي الجمعي وحسب. وذلك لأنه عند التفكير في شيء كائنا ما كان، فإننا نجده يرتبط بوقائع خاصة بحياتنا كأفراد، إلا أن الشيء ذاته يملك معنى موسوعي مرتبط بمعرفة جماعية ثقافية متسعة.

يمثل ايكو لمعرفة الموسوعية؛ بقوله¹³: ((إذا سمعت كلمة قطار، يمكنني لأسباب شخصية التفكير في جدتي، ذلك لأنني سافرت معها في الكثير من المرات على متن السكة الحديدية، وهذا لا يعني البتة أن كل ما يخص حياة جدتي هو جزء من تعريف موسوعي للقطار، إنه على خلاف ذلك جزء من واقعة، متمثلة في ناقلة تمكن من نقل الأفراد والبضائع وتقف على عجالات، تم اختراعها في القرن الأخير، والتي كانت تعمل بالبخار وتستعمل اليوم الكهرباء على العموم، واستعمالها يتطلب شراء تذكرة، والتي تغني بها بعض الشعراء بوصفها رمزا للتطور والازدهار...)).

إن الفرق واضح بين القاموس والموسوعة، فالأول يرسم صورة إلا أنها لا تعطينا كل ما يكفي لفهم دلالة الأشياء لكونها جزئية ومحدودة، بينما الموسوعة تحاول رصد كافة تمظهرات الأشياء ودلالاتها، ذلك لأن المعرفة الاجتماعية فسيحة جدا وفي تطور دائم، ومن ثم فإن أيانا كان ليس له أن يتفصح في معرفة دلالة ما إلا في إطار محدد.

على الرغم من الإمكانيات التي يوفرها التحليل المؤلفاتي من خلال تحليل الدلالة إلى مكونات بسيطة، فإنه ((لا يتجاوز شكل القاموس العادي))¹⁴. وتجاوزا لذلك ينبغي أن

سيميائيات

يضطلع بصياغة أنموذج ((يكون قادرا على وصف وتعريف عدد افتراضي غير منتهي))¹⁵ من معاني الوحدات الدلالية، وعليه ينبغي دمجه في تمثيل موسوعي بتوجيه النظر إلى الاعتبارات السياقية والظرفية: لأن ((التمثيل الموسوعي يقصي إمكانية إقامة مجموعة منتهية من السيمات السيميائية الواصفة، ويدفع بقوة التحليل إلى اللانهاية))¹⁶. ومن هنا فالمعنى لا ينحصر في تلك السمات الدلالية البسيطة المغلقة على ذاتها التي عكفت على إظهارها الدلالات اللسانية، بل ينبغي البحث المعنى بوصفه جزءا من الدلالات المفتوحة.

وهنا يؤكد امبرتو ايكو¹⁷ على ضرورة استثمار مفهوم المؤول البورسي لخصوبته في تحليل المحتويات اللسانية، ليلاحظ أن هناك فجوة قاتمة بين التحليل المؤلفاتي والطريقة التي بها بورس أعاد الاعتبار إلى المؤولات من وجهة نظر سيميائية. إن التحليلات المعاصرة تحيل أساسا إلى دلالات اللغات اللفظية، في حين بورس يقيم سيميائيات عامة تضع نصب عينها أنواع العلامات بأسرها، وهكذا فقد منحنا بورس الشروط النظرية الملائمة لبسط مسألة التحليل المؤلفاتي للظواهر السيميائية في كليتها. بما في ذلك الصور والحركات.

هوامش البحث:

1. - Eco Umberto, Le signe, Histoire et analyse d'un concept, pp. 144.145.
2. - J. P. Bronckart, théories du langage- Une introduction critique, p. 146.
3. - J. P. Bronckart, théories du langage- Une introduction critique, p. 146.
4. - Mounin Georges, clefs pour la linguistique, Seghers, Paris, p. 156.
5. - Joseph Courtés, Sémantique de E'nonce, application pratique, éd HACETTE, Paris, 1989, p.71.
6. - Griemas , A.J, Du sens , Essai Sémiotique, p.40.
7. - Oswald Ducrot et Jean Maire Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique de la science du langage, éd Seuil, 1995. p. 534.
8. - Eco Umberto, Sémiotique et philosophie du langage, Edition .P.U.F, Paris 1988, p.81.82.
9. - Jean – Marie Klinkenbreg, précis de sémiotique générale, p. 109.
10. - Eco Umberto, Pierce et la sémantique contemporaine, In Langage n°: 58 éd, Larousse, 1980, p 75
11. - Eco Umberto Le signe , Histoire et analyse d'un concept, p 148.
12. - Ibid, p 148.
13. - Ibid, pp 148, 149.
14. - Eco Umberto, Pierce et la sémantique contemporaine, p.76 .
15. - Ibid, p.76.
16. - Ibid, pp.76 77
17. - Eco Umberto, Pierce et la sémantique contemporaine., p78.